تبعثه فيها البواعث الخارجية ويصل اليها من طريق الحواس

والذى يهمنا أن الفلسفة تحولت من أعمال الانسان الى أفكاره ومن تفكيره الى ماهية نفسه . وهذا آخر مدى وصلت اليه الفلسفة الانسانية .

واليوم تقوم فلسفة أخرى تبحث النوعين الرئيسيين ، الفلسفة الطبيعية والانسانية ، لا على انهما منفصلان ، ولكن على أساس ايجاد الروابط التى تربط الانسان بالطبيعة ، ونتيجة هذا البحث الوصول الى الغرض الأسمى الذى لم يستطع الانسان منذ وجوده أن يظفر به لقصر تفكيره ونقص استعداده . إن اليقين بوجود الله من طريق العقل قد حل مشكلات الفلسفة قديما وحديثا . .

لقد أدرك الانسان أن ما يراه من مظاهر الطبيعة لم يسخر له اعتباطا ، وأن القوانين الطبيعية التى لم يتطرق اليها الخلل لم توجد اتفاقا ، وأن صلة الانسان بالطبيعة ضرورية ، وأن عظمة الخالق كما تظهر فى سر الكهرباء والجذب تظهر فى سر النفس وخلود الروح ، وكما عجزنا عن تعرف ماهية القوة السببية للحركة العامة المادة . فما أحرانا أن نكتفى من بحث الروح باليقين بوجودها .

إن نوعا من الفلسفة لا يزال غير مطروق مع عظيم فائدته . . على الفلاسفة اليوم أن يتركوا بحث الانسان فزداً فقد قام الانسان بنصيبه من التفكير فى أمر نفسه . ولكن عليهم أن يضعوا لنا فلسفة أجدى ، وأن يصرفوا جهودهم لبحث القوانين العامة التى يجب أن تربط المجتمع الانسانى . . إن فلسفة المجتمع هى الغاية التى يجب أن ننشدها لتم سنة الارتقاء وهى الناموس الذى يحكم الطبيعة والانسان ؟

على محمد راضى

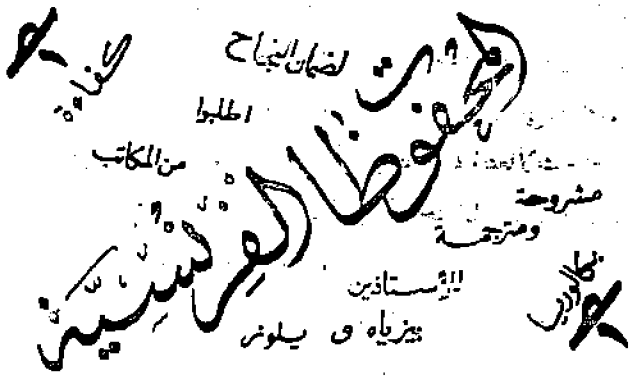

قصة من الواقع

الأمل الضائع

أو كذبة ابريل

لاتظن أيها القارىء الكريم أنى سأحدثك عن سبب هذه الكذبة ، ولا متى وأين وجدت ؟ فذلك بالمؤرخ أجدر ، ولا عن مدى أثرها فى نفوس من وقعوا فى حبائلها : أخير هو أم شر ؟ أجميل أم قبيح ؟ أنافع أم ضار ؟ فذلك بعالم الاخلاق أو النفس أليق . إنما أحدثك بلسان أديب ، رأى رأى العين قيصة من قمائص هذه الكذبة ، على غير علم منه أنها قيصة ، وإنما أردت أن أطرف بها القراء ؛ لأنها كما سيرون طريفة حقا ، محكمة فى نسجها إحكاما ، حتى لقد بدت — وهى الباطل المزخرف — كأروع مايكون الحق ، ومثلت مع أديب شاعر لينسرب إلى قلبه الشك فى صدقها ؛ ولعل ذلك إلى أن الأديب خلق أطهر الناس فطرة ، وأنقاهم سريرة . . . ضحك الأديب المكذوب عليه مع من ضحكوا على هذه الاكذوبة ، وربما كان أكثرهم اغراقا فى الضحك ، ذلك أنه وقف من أصحابها موقف جاد من هازلين ، متفرج على ممثلين ؛ صادق مع كاذبين

طرحت إحدى المجلات الشهرية المصرية على الشعراء مسابقة أدبية ، ذات جوائز مادية ، وانتهى موعد التقديم ، وترقب كل شاعر وأديب نتيجته ، كما يترقب المسهم فى بعض الأنصبة نصيبه . .

وفى ذات ليلة من ليالى ابريل ، فكر ثلاثة من الاصدقاء فى أن يكذبوا « كذبة ابريل » ولم يطل التفكير ؛ فقد كانوا مسهمين فى هذه المسابقة الادبية ، فلماذا لاتكون المسابقة هى مادة الكذبة ؟ ولماذا لايكون أحد المتسابقين غيرهم موضوعها ؟ ولماذا لا يكون ذلك الأحد صديقا لهم ، اشتهر فيهم بالحلم ، فأمسوا عاقبة ماتحدثه الكذبة فى صدره ؟ وأخيرا لماذا لا يتلهون بهذه الأكذوبة ويقطعون بها وبالحديث عنها فترة الانتظار ، انتظار النتيجة الممل

اختمرت الفكرة ، ولكن بى أن تصقل بصيقل الدهاء ، وترتب سرادقها تباعا ، ويشذب ماعساه يبدأ فيها من شبه وظنون ،

ويبعد عنها ما عساه ينبه قوة الملاحظة التى ستغرق فى حلم من الأكذوبة لذيذ . .

تولى أحد المتآمرين سرد حوادث الكذبة كما ستقع ، وتولى الآخر الاعتراض ، وتولى الثالث الرد ، وهكذا تبادلوا الأسئلة والأجوبة والنقد والتمحيص ، حتى أقر الجميع متانة صقلها ، وقوة سبكها ، ثم تعاهدوا على أن يكاتموا سرها حتى على انفسهم ليضمنوا لها النجاح والتوفيق .

ابتدأت الخطوة الأولى من التنفيذ بكتابة خطاب إلى هذا الصديق المتسابق بخط صاحب المجلة الزائف ، ولكن مع كثير من التقليد ، وبخاصة الامضاء . وهذه صورة الخطاب !

« فلان . . . تحية . . . وبعد فيسر صاحب الامضاء أن يبشركم بالفوز فى مضمار المسابقة . والمجلة تهنئكم به ، وتطلب اليكم أن ترسلوا صوركم الشمسية لتصدر بها قصيدتكم المجلية فى ميعاد لا يتجاوز ٢٨ الجارى . . والسلام »

ألصق الخطاب ، وكتب عليه عنوان صاحبه ، وسلم إلى بريد القطار الذى يؤم القاهرة أو بعبارة أدق وضع فى صندوق بريد المحطة طمعا فى أن يصل إلى القاهرة خطأ فتعيده تلك إلى مكتب البريد الذى يوصله الى صاحبنا ، حتى إذا نظر إلى الخطاب لا يشك فى انه صادر من موطن المجلة . كلف أحد المتآمرين ان يرقب عن كثب مصير الخطاب حين يصل القطار . تنبه البريد إلى هذه الخطأة فأرسل الخطاب إلى مكتب بريد البلد قبل ان يصفر القطار ، وذلك مالم يكن فى حساب المتآمرين ؛ وسرعان ماتلافوا ذلك بأن تطوع أحدهم بحمل الخطاب من مكتب البريد إلى حيث توضع خطابات صاحبنا على مكتبه ، وتولى حراسته ، حتى لا ينظر فيه غير صاحبه خشية ان يدرك بوساطة خاتم البريد أنه مصدر من البلد نفسه ، لانه سينظر إليه بعين فاحصة فتكشف العصابة بعض ، لا كما سينظر اليه صاحب الخطاب بعين اللهف على مافيه . . . هل صاحبنا فى وقت تعود فيه أن يتسلم بريده ، فأبرقت أسارير جبهته ، حين وقعت عينه على ذلك الخطاب ، وأنت أدرى كم يكون سرورك حين تقع عينك على خطاب ، ولو كان ظاهره فيه الرحمة وباطنه من قبله العذاب . . تناول صاحبنا الخطاب بيد مرتعشة ، ورعشة الفرح أو الاشفاق لا أدرى ! ومزق الغلاف ونظر فى سطور الخطاب نظرة سريعة وإذا بالبشرى ، بشرى الفوز فى مضمار المسابقة يفوح عبيرها ؛ فيملأ أنفه ويسرى منه الى أعصاب المخ والقلب سريان البرق ، فيهدر فى غير وعى ، إشارات الفرح ، وأمارات الانتصار ، غير ناظر إلى خاتم البريد ، ولا ممعن فى النظر إلى السطور الزائفة . . .

« أعطى عقلك ! » لا نظر ولا انتظار ، ولا هدوء ولا قرار ، على مثل ذلك النبأ السار . . .

اغتنم حارس الخطاب هذه النشوة من صاحبنا فاختلس الغلاف وأخفاه حتى لا يعيد النظر الى الخاتم بعد زوال السكرة ، ورجوع الفكرة ، ثم أظهر الحارس الفرح بفرح أخيه ، وتناول الخطاب من يده ، وأخذ يطوف به على بقية الاخوان ، مبشراً من لم يتآمر منهم بنجاح صاحبهم ، ومن تآمر بنجاح مؤامرتهم . . أرأيت كيف تدبر المؤامرات وتحكم التلفيقات ؟ ألم يصدق المثل القائل « كذب مرصوف ، ولا صدق مندوف » وهنا اقترح المتآمرون على صاحبهم أن يدفع ثمن هذه البشرى « حفلة سمر أخوية مسائية تقام فى بيته » وأيد هذا الاقتراح سائر الاخوان فلم يسعه إزاء هذا الاجماع إلا أن يوافق بعد تردد لم يطل مداه إذ بخسوا له هذا الثمن (بمبلغ زهيد يشترى به فاكهة ، وتقام حول مائدتها حفلة تكريم ، للشاعر العظيم) ، دفع صاحبنا الثمن لاحد المتآمرين الذى تطوع بأن يقوم عنه بمهمة شراء الفاكهة ، وأنه سيتبرع هو الآخر بنصف هذا الثمن ، حبا وكرامة . التفت ذهن الشاعر إذن الى الصورة الشمسية ، ورأى أن ما عنده من الصور لا يصلح لمثل هذا التفوق فقرر أن يحضر صوراً جديدة تكون أنق وأجمل . وتواردت فى ذهنه هذه الاسئلة : من ذلك المصور المهر الذى سيحظى بشرف تصوير حامل قصب السبق فى مضمار أدبى ؟ من أى المدن القريبة يستحضرها ؟ أى القطر يستقله الى المدينة ؟ متى يسافر ؟ كيف يحصل على اجازة من عمله ؟ . . .

بعد لأى قرر السفر غداً . ولكن اخوانه المتآمرين كانوا قد قرروا أن تكون هذه الاكذوبة مداعبة ظريفة ليس أكثر ، فرسموا خطتهم على ألا يكون سفر ، وألا يكون ما وراء السفر من مشاق ونفقات ، ولا ماوراء ارسال الصورة الشمسية الى صاحب المجلة مما تعلم ، وما لا تعلم . . . كان ذلك رأى كثر منه سيحدث لو لم يقرر للمداعبة أن تكون ظريفة غير قاسية ؛ لذلك قرروا أن تكون حفلة السمر فى مساء ذلك اليوم ، وأن يفاجأ صاحبنا بأكذوبة ابريل بعد ما عساه أن يقال فى من خطب

ومقطوعات وأزجال ، فى حفلة كلها أدباء أبطال

قضى الشاعر يومه غير محسوب من عمره كما يقولون : أحلام شهية ، وآمال طلية ، وشرف ومجد ، وصيت لايحد ، ذهل حتى عن نفسه ، واختلط عليه يومه بأمسه ، يخاطبه مخاطبه فيجيب « نعم » حيث الجواب « لا » ، يجيب « لا » حيث الجواب نعم ، وقد يكتفى بايماءة من رأسه تصلح للنفى والاثبات ، وتؤدى معنى لا ونعم ، وما إن فرغ من عمله حتى رأى نفسه فى حجرة الاستقبال فى بيته ، ينظم وينسق ، ويرتب وينمق ، ثم فى حجرة المائدة يكللها بالازهار لأنها ستحظى بتكريم فائز المضمار . . . دقت الساعة تسعا ، فدقت « سماعة » الباب وإذا الطارق إخوانه المحتفلون ، أخذ يحييهم ، فيهنئون ، ثم دعاهم إلى المائدة ، فطفقوا يأكلون

جلس الشاعر على مقعد التكريم ، ولأول مرة يفوز بهذا المقعد ، فاحس الخيلاء تتمشى فى نفسه ، وخواطر العظمة تجيش فى صدره ، انبرى الخطباء أمام المنصة ، يقولون ماسمعته مرارا حول موائد التكريم ، حديث معاد ، لايحرف ولا يزداد ، وكان الخطباء بين اثنين : جاد منسجم فى جده ، وهازل غارق فى هزله والشاعر ترتسم على وجهه ألوان متعاقبة متأثرة بما يقال ، فهو خجل حين يفيض المدح ، متواضع حين يغلو الاعجاب ، مبتسم حين تشرق الدعابة ، ضاحك حين تدوى النكتة ، مزهو حين يذكر السبق فى المضمار ، ثمل حين تدار كأس الانتصار ؛ انتهى الخطباء من كلماتهم ، ولم يبق غير واحد من المنآمرين اعتذر بأن كلمته قصيرة فاترة ، قد يفوح شذاها إن جعلت مسك الختام

وهنا قام الشاعر المكرم ، يؤم المنصة ، متئد الخطى فى دلال ، مصعر الخد من جلال ، ولم لا ؟ ألم يكن المجلى فى حلبة الفرسان ؟ ألم يفز بالقدح المعلى فى الرهان ؟ ألم يشر أو سيشار اليه بالبنان ؟ ألم يصرع — وهو الشاعر الناشىء ، والأديب الحديث — فحول الشعراء ، وقدامى الأدباء فى الميدان ؟ أخذ أمام المنصة يجول ويصول ويهز جوانبها تارة بالشعر المسقول ، وأخرى بالنثر المعسول ، يخلع على الخطباء أبهج الحلل ، ويقلدهم أنصع الدرر ؛ حتى ملأ السمع ، وأثلج الصدر ، وأفعم القلب ؛ وأخيرا جلس كما قام بين عاصفة من الهتاف والتصفيق . .

قام صاحب مسك الختام ، وألقى فى أول كلمته مايناسب المقام ، ثم . . . ثم مادا ؟ . ثم استجمع قواه ، وشد من أعصابه كما يتجمع من يهم بالقاء قنبلة داوية ، وأراد أن يلقيها كلمة صريحة فلم تطاوعه نفسه أن يقذف بها صديقا أعز عليه من نفسه ، ولكنه أرسلها مبهمة تأخذ النفس فى استجلائها رويداً رويدا فتأنس لها ولا تنفر منها نفورا كبيرا . . إذن ماذا قال ؟ قال ! « ألما نزل فى ابريل ، ذلك الشهر الطويل ، شهر الكذب والتضليل ، وسكت . . .

هنا ذهبت نفوس المحتفلين غير المتآمرين وأو لهم الشاعر فى تأويل ذلك الذى تيل كل مذهب ، وأخذ الشك يدب إلى يقينهم رويدا رويدا ، كما يدب غسق الليل الى وضح النهار حين الغروب ، . . ولكن ما زال فى الافق بصيص من نور ، وفى النفس ذبالة من أمل ، لقد أطفأ ظرف الخطاب ، أنسيت الخطاب المزيف ؟ » الذى عرض على الجميع بين الدهشة والاستغراب ، فوجدوا أن خاتم البريد هو لمكتب البلد الذى به صاحبنا ، غير أنه ختم به مرتين ذلك الخطاب الذى لم يحظ بركوب القطار . . . وإذن كان ظرف الخطاب ، هو فصل الخطاب ، قطعت به (جهيزة قول كل خطيب) وصاح الجميع فى نفس واحد ، ابريل . . . ابريل ، كذبة ابريل ! لقد مثلت أجود تمثيل ، فكانت كذبة رائعة محكمة ، وكانت مفاجأة لذيذة ممتعة . فهل كانت كذلك فى نفس شاعرنا الكريم ؟ الجواب والمعنى فى بطن الشاعر كما يقولون . فوجىء صاحبنا بكذبة ابريل ، وأنت أدرى مايحوم حول المفاجآت من تكبير وتهليل .

أناب الشاعر من حلم لذيذ ، دام من الثامنة صباحا إلى العاشرة مساء ، على صوت قذيفة هذه المفاجأة الصارخة ، وانهار فى لحظة واحدة من الواقع مابناه الخيال والوهم من صروح فى ساعات وغار البشر فى ظلام العبوس ، ودفنت النشوة فى وجوم الدهشة ، وأرسل صاحبنا قهقهة عالية عصبية ؛ أمن الغيظ أو الكذب أو الغفلة ؟ لا أدرى ! ملأ السامرون حجرة السمر بصوت مزيج من تصفيق الانتصار ، وضجيج الدهشة ، وصياح الانكار ، وضوضاء الفرح ، ونشيج الأمل

فكيف كان موقف شاعرنا ؟ تكلف وسط هذا الموج الصاخب أن يظهر بمظهر الرجل الثابت الذى يقابل الخطوب بابتسام . والاكاذيب بابتسام ، وهتف من أعماق نفسه « ألا لعنة الله على الماجنين ، وأخذ يسلى نفسه بما حضره من حكم الشعراء ، بمثل قول أبى العلاء